مجلة الاستيعاب
Issn : 2661-7625 Eissn :2773-3947
المجلد: الخامس * العـدد: الثالث* ص : 67-86

ملامح التغريب في الثقافة الإسلامية الجزائرية وأثره على الاستقرار الفكري

The Feature of Westernization In The Algerian Muslim Culture And Its Impact On Intellectual Stability

د. بـوقـاف جـمال الـديـن[1]

قسم العلوم الإسلامية، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة (الجزائر)

البريد المهني: djamel-eddine.boukhaf@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2023/03/29 تاريخ القبول: 2023/05/09 تاريخ النشر: 2023/09/20

ملخص:

يركز هذا البحث على أحد جوانب الغزو الفكري الذي تتعرض له الجزائر، ألا وهو التغريب الثقافي وهو من أكبر التحديات المعاصرة للهوية الجزائرية، بتشويه تاريخها الاسلامي ومزاحمة قيمها الإسلامية بقيم غربية، وبواسطة شخصيات وأقلام جزائرية الأصل، تنكرت للحقيقة وساهمت في زعزعة مبادئ الشخصية الجزائرية الموثقة في بيان أول نوفمبر 1954م، بدعوى الموضوعية العلمية والتنوير الاجتماعي.

وسنحاول ذكر أهم الآراء التغريبية لدى أحد هؤلاء الكتَّاب نتخذه كنموذج لبيان تحديات الهوية الجزائرية وبأقلام بعض الجزائريين، ويتجلى من خلاله سوء مذهبهم وقلة أصالتهم وخطأ فهومهم.

كلمات مفتاحية: الغزو الفكري ، التغريب الثقافي ، الهوية الجزائرية ، الثقافة الاسلامية ، التنوير

Abstract:

This study attempts to focus on one type of the intellectual invasion on Algerian society. This very type is referred to cultural foreignisation, which is seen as a big challenge for the Algerian identity, by virtue of tarnishing its Islamic norms via inserting weird values, and this is also via purely Algerian writers and figures. These foreing values have disguised in a tob of reality and could, therefore shake the principles of the Algerian identity that were issued on November 1st, 1954 as a way to academic objectivity and eye opening societies.

In this study, we will attempt to mention the most remarkable foreignising ideas for some of these writers, and will be taken as a modal

for demonstating the challenges of the Algerian identity by some of the Algerian writers.

Keywords: intellectual invasion, cultural foreignisation, Algerian identity, Islamic culture, Enlightenment.

[1] **المؤلف المرسل**: د. بوقاف جمال الدين ، Jamal88bo@gmail.com

مقدمة:

يحدثنا تاريخ الجزائر الثقافي عن الكثير من العقبات التي اعترضت استقراره، ويُـنَبِّـئنا بالهجمات المدبرات التي توجهت بكل قواها صوب الأسس المكينة والقواعد الفكرية التي تعتمد عليها الأمة الجزائرية في ثبوتها وتمكنها، كما يشعرنا ذلك التاريخ بخطورة الخطوات المستمرة والمحاولات المتكررة للنيل من المقومات الثقافية والفكرية الدالة على الشخصية الجزائرية المتمثلة في المبادئ الدينية الإسلامية الأصيلة والقومية العربية، وهذا أسلوب من أهم أساليب الاستعمار الغربي للإطاحة بالعالم الإسلامي عموما والجزائر خصوصا، إذ تسعى كل القوى الاستعمارية –أول ما تسعى– إلى هدم الهوية الوطنية ومحو شخصية المجتمعات، وفرض ثقافتها وفكرها ومقومات شخصيتها وقوميتها، فتكون الهوية المغلوبة تابعة لها ذليلة لا هي تندمج فيها تماما ولا هي بذاتها مستقلة بهويتها، فيتسنى لها بعدئذ كنتيجة حتمية التحكم بالشعب المستعمَر فكريا وثقافيا واستغلال بلاده وثرواته ونهب خيراته والتلاعب بمستقبله ومصيره.

فالجبهات المعادية للجزائر وأمتها وتاريخها لن تهدأ ولن تستكين يوما، فبعدما عجزوا عن الإطاحة بها وحل عقدها بالأساليب العسكرية والقوة التدميرية، عمدوا إلى الغزو الفكري ضد مقومات الهوية الجزائرية عن طريق إثارة بعض القضايا حول الثقافة الإسلامية باعتبارها أهم دعائم الشخصية الجزائرية، وإثارة التشكيك فيها وإيراد العديد من التهم والادعاءات حولها، وإشغال عقل المسلم الجزائري بها قصد البلبلة والإشغاب الثقافي، بتشويه التاريخ الإسلامي وإضعاف اللغة العربية، ومزاحمة القيم الإسلامية بقيم

غربية وغير ذلك من أنشطة التبشير العلماني والغزو الفكري، وهذا ما يسمونه في عرفهم ومنهجهم بتجفيف منابع الفكر الديني.

وإنه لمن المحزن أن نجد من بني جلدتنا أناسا يُحسَبُون على الفكر والتربية والثقافة الجزائرية، يتناسون حقيقة المجتمع الجزائري وثقافته الإسلامية وولائه وانتمائه وقوميته، فيتنكرون عمدا عن علم أو سهوا بغير علم لكل ذلك فيكتبون ويصرحون – وهم في سياق الكلام عن المجتمع الجزائري– بغير تلك الحقائق والمسلمات، بدعوى الموضوعية العلمية والتحليل الفكري والتنوير الاجتماعي، وينادون في الناس بأنهم ذوو البصيرة الناقدة التي تهتم بالعلوم ونتائج البحوث العلمية دون أي قيد أو دوافع عاطفية، فالقيود أيا كانت والنوازع العاطفية تجعل الباحث بعيدا عن الموضوعية البحتة التي يتطلَّبها البحث؛ حقيقة إنه نمط غريب من الناس.

نعم غريب كغرابة فكرهم ومنهجهم ومواقفهم تجاه الثقافة الاسلامية ككل، فتلقى في بحوث هؤلاء الغموض والاضطراب وهم الدعاة إلى وضوح الأفكار واستقرار المناهج العلمية، وتجد فيهم الإنكار لكل ما هو إسلامي قديمه وجديده والرضى بكل ما هو غربي غـثِّـه وسمينه وهم الدعاة إلى الموضوعية العلمية، شعارات وأقوال لا يصدقها الواقع والأفعال، ليَدُل هذا الحال على أن الغاية ليست هي الوصول إلى الحق إذا تبين وقبوله إذا ظهر، وإنما الغاية هي التضليل وإثارة الشبهة والتلاعب بالمبادئ وقيم المجتمعات المغلوبة المستعمَرة انبهارا بالغالب المستعمِر، بل وفي بعض الأحيان سعيا لإرضائه وخدمة لأجندته وتحقيقا لبرامجه ومراميه على حساب الاستقرار الثقافي الفكري في أوطانهم.

فلذا وجب على أهل العلم والفكر والأدب –غيرة على ثقافتهم وتاريخ أمتهم– أن يقوموا بواجب الدفاع والتصدي لتلك التيارات والقوى المعادية لهويتهم، بوضع خطط واتخاذ تدابير علمية وأساليب تتناسب مع حجم المؤامرة وخطورة الوضع الفكري المهدد للبيت الجزائري ونظام مجتمعه، فالحاجة ملحة للكشف عن تلك البرامج والمخططات العدائية وإبراز زيفها، حتى وإن اتخذت الثقافة والتنوير الفكري شعارا لها لتبرير نشاطها وتحسين حالها، فالغزو الفكري من أخطر أساليب الحروب وأشدها فتكا.

ولا أريد الإطالة في خضم تلك الصراعات الفكرية والتيارات المعادية حيث أن المجال في كل تيار متسع النطاق متشعب الرؤى، فلهذا اهتمت هذه الدراسة بواحد من أبرز تلك التيارات وأشد الصراعات الفكرية والثقافية ألا وهو "التغريب الثقافي" الذي تسرب في الآونة الأخيرة إلى أوساط الباحثين الجزائريين وبأقلام جزائرية، بشعارات توحي بقبوله واعتناقه والاهتمام بدعاته وناصريه ونبذ مخالفته ومناقشيه، ونحاول في هذه العجالة تسليط الضوء على جانب من هذا التغريب في الثقافة الإسلامية الجزائرية وتناولها بشيء من البيان والتحليل والنقد قدر الجهد والمستطاع.

إشكالية البحث وتساؤلاته: تتحدد الاشكالية المقصود تجليتها من الدراسة في سؤال عام رئيس، إلى جانب بعض التساؤلات الفرعية التي تخدم الإشكال العام.

ما حقيقة تلك الأقلام الجزائرية التي تنال من الهوية وتستصغر شأنها، بدعوى العقلانية والبحث العلمي؟

- ما ماهية التغريب الثقافي وما غايته وآلياته؟
- ما مدى جدية تلكم الأفكار وسلامتها في الميزان العلمي والتحليل المعتبر أكاديميا؟

أهداف البحث وغايته: تهدف هذه الورقة العلمية إلى تجلية سبيل من سبل النيل من الهوية الوطنية الجزائرية، التي تتزيى بزي الأكاديمي والتحليل النقدي العلمي، وهي ليست منه في شيء ولا جرت على وفق نهجه السليم المضبوط، فجمعت خلاصة الأفكار في عناوين معدودة وتناولتها بالشرح والبيان والتحليل، جريا وفق المعمول به علميا وأكاديميا، ليتسنى للقارئ التأكد من صلاحية المحكم الأصيل، وهشاشة وغرابة الدخيل.

المنهج المتبع في العمل البحثي: اعتمدت هذه الدراسة في جريان مادتها العلمية على المنهج الاستقرائي والمنهج التحليلي المقارن بأولوية واضحة، فالاستقرائي: يتجلى من خلال التتبع لبعض المصنفات لتلكم الشخصية المعارضة للهوية الجزائرية، واستنباط الخلاصة العامة منها، ثم المنهج التحليلي المقارن: يتجلى من خلال التفسير والشرح للفكرة الدخيلة ومقارنتها بالفكرة الأصيلة وبيان أحقية الثانية وزيف الأولى.

إلى جانب بعض المناهج عرضا التي يقتضيها موقف خاص، كالوصفي في بيان التعاريف وتصوير الحالة وواقع القضية.

تصميم خطة البحث: كان تصميم الدراسة وتنظيمها في مبحثين اثنين: أولهما في بيان التغريب مفهومه وأهدافه ووسائله، وثانيهما في عرض الملامح من بعض كتابات الجزائريين على شكل مسائل وتحليلها وسنورد أهم القضايا المتعلقة بهذا المجال.

المبحث الأول: التغريب الثقافي.. وقفة مع المفهوم والأهداف والوسائل

المطلب الأول: مفهوم التغريب الثقافي

من المصطلحات التي أخذت تنتشر في كتابات مثقفينا المُحْدثين في الآونة الأخيرة، والتي تمتاز بحمولتها المعرفية والاجتماعية والسياسية والحضارية، نجد «التغريب» الذي شكل موضوعًا ثرًّا من المواضيع لغير واحدٍ من الكتاب المعاصرين. تُرى فما المقصود به؟

التغريب في اللغة مأخوذ من غرَّب يغرِّب تغريبا، والتغريب هو النفي عن البلد الذي يستقر فيه المرء، والتغرب بمعنى البعد ويقال أغربته وغربته إذا نحيته وأبعدته، والغريب هو البعيد عن وطنه (ابن منظور، 1414هـ، صفحة ج:1، ص:639).

ولهذا المصطلح العديد من المعاني في اللغة العربية، إلا أنها كلها تعود إلى المعنى الواحد الشامل وهو معنى البعد والإقصاء عن الوطن.

والظاهر أن علماء اللغة تكلموا عن التغريب وحددوا معناه من ناحية حسية فقط، فلذا قصروا مفهومه بالبعد عن الوطن والهجرة عنه إلى بلد آخر وقوم آخرين، ولكن لم يذكروا البعد المعنوي المتمثل في هجران البلد فكريا وثقافيا وإن كان أحدهم يقيم فيه وبين أهله وذويه، وهذا المعنى الثاني أولى بالاعتبار من الأول، فدلالة التغريب تتغير بانتقالنا من الإطار اللغوي إلى الأطر الثقافية والسياسية والاجتماعية، وتتشعَّب معانيه مع توالي الأيام، فالتغريب كما ندركُه في الوقت الحاضر، ليس هو التغريب الذي كان يَعرفه علماء اللغة قديما.

أما التغريب عند أرباب الفكر الاسلامي المعاصر وأهل الرأي فهو: "تحويل المسلمين عن دينهم نحو المفاهيم الغربية بالأساليب المتدرجة التي تضعف ارتباطهم به فكرا وسلوكا" (الجندي، 1964م، صفحة ص:36)، فهذا المفهوم للتغريب شامل للعديد من التعاريف التي اختلفت ألفاظها وسياقاتها، فهو يشمل المرتكزات الثلاث التي يقوم عليها معنى التغريب الثقافي، وهي:

أولا: تحويل الثقافة الدينية الاسلامية لمجتمع ما من المجتمعات الإسلامية.

ثانيا: إحلال الثقافة الأجنبية المخالفة للمجتمع المسلم عقديا وفكريا وتاريخيا وفي الغالب ما تكون أفكار المستعمِر وثقافته.

ثالثا: الغاية من هذا الغزو الفكري إضعاف قوة الارتباط والانتماء للأمة والمبادئ الإسلامية.

والتركيز على التغريب الثقافي والغزو الفكري راجع لمكانة الثقافة في صناعة حياة الأمم وخطورة المساس بها، وبالخصوص الفكرة الدينية التي تلعب الدور الأهم في تكوين الحضارة كما يقول مالك ابن نبي بأنها المركب الضروري والعامل الأساس في صناعة الحضارات، فالفكرة الدينية هي الباعث الداخلي على الحركة والنشاط وهي من تتولى تنظيم غرائز الفرد ليمارس عمله حسب قانون الروح (بن نبي، 1986م، صفحة ص:46)، فالإنسان هو المخلوق الوحيد على وجه الأرض الذي يتصرف في الحياة وفق معتقداته ومبادئه وثقافته، فتغييرها أو التحكم فيها يعني تغير حياة ذلك الإنسان أو التحكم فيه وفي مصيره.

المطلب الثاني: أهداف التغريب الثقافي

علمنا أن التغريب هو دعوى موجهة من جهات غربية لصبغ الثقافة الإسلامية في أي مجتمع مسلم بصبغة أجنبية وإخراجها عن طابعها الإسلامي الخالص وتذويبها في بوتقة أجندات معادية، وهو وإن تعددت أساليبه واختلفت أنشطته فهو يلتقى عند الغاية الواحدة والهدف المرسوم من طرف تلك القوى المتغلبة على حساب وكاهل المجتمعات المغلوبة، وإن أبرز تلك الغايات بل وأولها قصدا غايتان (مسلم و الزغبي، 2007م، صفحة ص: 293)

1- السعي الحثيث للهيمنة على الوطن العربي ومجتمعاته الإسلامية، حيث أن التغريب الثقافي سلاح استخدمه الاستعمار في بسط نفوذه ولازال يستعمله، فالقوى الاستعمارية غيرت أساليبها وتخلت عن الاستعمار المباشر إلى نمط استعماري آخر غير مباشر ألا وهو الهيمنة الثقافية.

2- استهداف الهوية الشخصية للأمم والمجتمعات الإسلامية بواسطة استهداف ثقافتها ومقومات شخصيتها، وسلبها العامل الأساس والفعال في صناعة حضارتها وتحديد مصيرها وفق منطلقات فكرها

وقوميتها، فتبقى هذه الشعوب عالة عليه وراجعة إليه، فلا هي تحسن التصرف في ظروف يومها ولا هي تحسن النظر والتدبير لغدها.

وعموما فالتغريب هو تيار فكري ثقافي كبير ذو أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية وفنية، يرمي إلى صبغ حياة الأمم بعامة والمسلمين بخاصة بالأسلوب الغربي، وخلق عقلية جديدة تعتمد على تصورات الفكر الغربي ومقاييسه، لتحاكم الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي من خلال تلك العقلية الأجنبية، قصد سيادة الحضارة الغربية وتسييدها علي حضارات الأمم ولاسيما الحضارة الإسلامية، وإلغاء شخصية المجتمع المسلم المستقلة وخصائصه المتفردة وجعله أسير التبعية الكاملة للحضارة الغربية.

المطلب الثالث: وسائل التغريب الثقافي

بما أن التغريب المقصود هنا هو ذاك التغريب المعنوي الثقافي، فإن وسائله المحققة لهذه الغاية هي وسائل تعليمية وفكرية بحتة، وهذا ما حرص على بيانه الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني في عدد من مصنفاته وكتبه[1]، التي تناول فيها قضية التغريب الثقافي والغزو الفكري الغربي للعالم الإسلامي ومن أهم تلك الوسائل التي ذكرها:

أولا: وسيلة التفريغ والملء وهي من أخطر السبل في هدم القيم ومقومات الأمم ذات المجد والفكر العظيم، حيث يتم في مدارس التعليم تفريغ عقول الأجيال الناشئة وقلوبهم من جذور قومهم وأمتهم عقليا وعاطفيا وأخلاقيا وهو ما يعرف بـ(غسيل الدماغ)، ثم ملئ ذلك الفراغ العقلي والعاطفي بمخترعات فكرية وعاطفية مزورة تخدم غايات أجنبية وتهدم كيان أمتهم وهو ما يسمى بـ(التضليل الفكري)، ثم تسخير تلك الأجيال بعد حين في هدم وإزالة ما تبقى من جذور فكرهم الأصلي وأصول عقيدتهم الأم وأخلاقهم وسلوكهم وتاريخ أوطانهم ومجد أجدادهم وأعلامهم (حبنكة الميداني، 1982م، الصفحات ص: 207-208)

[1] كتب الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني العديد من المصنفات في مجال الغزو الفكري، منها ما تناول فيه الغزو بدراسة نظرية بتجلية معالمه وأنشطته، ومنها ما رد به على بعض المتأثرين بالثقافة الغربية ودعاتها من المسلمين، ومنها ما جمع فيه أساليب الغزو الفكري وآراء الغزاة وفندها، ومن هذا الأخير كتابه القيم: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة

ثانيا: شغل أبناء المسلمين بما لا طائل من البحث فيه ودراسته باسم البحوث العلمية، كالفلسفات الفكرية المتناقضة المتعارضة وغمسهم في لجج صراعات اجتماعية، بغية قتل طاقاتهم الفكرية وإهدار جهودهم الذهنية في ما لا يرجى نفعه، أو كشغلهم بحشد من التفاهات التعبيرية والرومانسيات العبثية والتي قد تكون كتاباتها بالعامية باسم الأدبيات، دون أن يكون لها ثمرة تربوية قويمة أو خلقية كريمة أو فكرية تضيف علما أو نفسية تنمي ذوقا أو تسمو بالوجدان (حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، 2000م، صفحة ص: 223)

ثالثا: إدخال فنون التمثيل والرقص والغناء والتصوير والنحت في قائمة العلوم التي يتوقف عليها ارتقاء الأمم وتقدمها، وجعلها ومن مواطن البذل والاهتمام وتوجيه الشباب إليها، فتقدم على غيرها من القطاعات وتصرف فيها الأموال وتبذل فيها الجهود على حساب الثقافة العلمية والأفكار الحضارية (حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، 2000م، صفحة ص:223)

رابعا: التضييق على العلوم النافعة وثقافة المجتمعات وعلى المشتغلين بها عامة والعلوم الدينية والثقافة الاسلامية خاصة، بإثارة الشبهات والشكوك حولها والمساس بمبادئها وثوابتها، وإثارة ألوان السخرية والهزء وأنواع التهكم بعلماء الثقافة الاسلامية ودارسيها، وهذا الفعل له الأثر القوي في إضعاف نفوس الشباب عن التوجه لدراسة الفكر الإسلامي وثقافته أي أنه بمثابة أداة ضغط اجتماعي (حبنكة الميداني، غزو في الصميم دراسة واعية للغزو الفكري، 1982م، الصفحات ص: 212-213)

وعلى كل حال فهذه أهم الأساليب والوسائل والتدابير التعليمية المتخذة لتحقيق تلك الغايات والأهداف المرسومة، كما لا يخفى وجود أساليب أخرى وطرائق يعتمدها الغزاة فكريا إلا أنها إما خادمة لهذه الأساليب أو أنها لا ترقى في الأهمية إلى مستوى هذه السبل الأربعة، إلى جانب وجود وسائل أخرى غير تعليمية كإثارة الفتن والنزاعات الداخلية والصراعات القبلية، ومحاولة تصوير كل قطر إسلامي على أنه منفصل مستقل عن غيره من الأقطار الإسلامية، وله فكره ومنهجه الخاص به في الجانب الديني والتاريخي، وخلق جو من النفور النفسي بين أبناء الأمة الواحدة (الجندي، شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي،

1978م، صفحة ص: 5)، واللعب على وتر الأعراق المتنوعة التي جمعتها الثقافة الإسلامية في الجزائر وغيرها تحت راية واحدة وانتماء واحد.

ولو اتخذ العالم الاسلامي عموما والجزائر خصوصا احتياطه من هذه المخططات والأساليب التعليمية الأربعة وغير التعليمية المهددة لاستقرار فكره وثقافته، لكفى نفسه شرا مستطيرا ووقى ثقافته وفكره من أعتى التحديات التي تريد له الهوان والاضطراب والشتات.

المبحث الثاني: عرض ملامح التغريب

يقوم الفكر التغريبي على عديد من الدعاوى والقضايا التي يتبناها أتباعه، ويجعلون منها أسس الثقافة العالمية والفكر التنويري الذي سيواجهون به الظلامية الدينية؛ هكذا يقولون! إلا أن علماء ومفكري المسلمين بالأخص من أمثال مالك بن نبي وأنور الجندي وعبد الرحمن حبنكة الميداني ومحمد سعيد رمضان البوطي وغيرهم، كانت لهم جهود كثيرة ومصنفات متخصصة في إبطال دعاواهم، وكشف محاولات التجني على الثقافة الاسلامية عموما، وبيان مكائدهم باسم التنوير العلمي والنورانية العالمية.

وقد تبنى وللأسف بعض الكتَّاب الجزائريين[2] هذه الدعاوى وتلك الآراء التغريبية وحاولوا ويحاولون إقناع المجتمع الجزائري – وهو ذو الهوية الإسلامية – بما ذهبوا إليه، ويتوجهون بخطاباتهم وكتاباتهم إلى الطبقة المثقفة والطلبة الجامعيين من المجتمع الجزائري، باعتبارهم صمام الأمان الفكري لجزائر الغد وحاملي لواء الثقافة الاسلامية الجزائرية وفق مبادئ بيان أول نوفمبر 1954م، فيدعونهم للتنكر لمبادئ قومهم وهوية وطنهم ومقومات أمتهم، وسنحاول هنا التطرق لكبرى الدعائم لهذا الفكر الدخيل من خلال ذكر قضيتين من أهم قضايا التغريب التي أوردها أحد الكتّاب الجزائريين وانتصر لها أيما انتصار، ولسنا نقصد

[2] وفي مقدمتهم الكاتب محمد أركون الذي درس في المدارس الفرنسية طفلا وشب وشاب على فكرها ومذهبها وتوظف في جامعاتها، وقد اخترنا آراءه من خلال كتابه "العلمنة والدين: الإسلام المسيحية الغرب" كنموذج لبيان الحملة التغريبية الموجهة صوب الثقافة الاسلامية الجزائرية، إذ أنه جزائري الأصل وركز في كتابه المذكور على الحالة الجزائرية وضرب بها المثال في عدد من المواضع.

التعريض ولا التشهير وإنما نسعى للحوار العلمي الفكري، فالبحث والتحقيق المنصف وارد في كل القضايا وعلى مختلف الأصعدة وهو واجب علمي ومستحب عقلي.

المطلب الأول: دعوى التعارض بين البحث العلمي والثقافة الإسلامية

كثيرا ما يتحدث الباحثون عن صعوبات البحث التي تعترضهم في الإعداد والانجاز، ولا نجد واحدا منهم كتب أو أشار بأن هناك بابا أو مجالا علميا ما استطاع أن يتناوله بالدراسة بسبب المنع الشرعي أو حُرْمَة دراسته، ومع ذلك نجد هناك من ينادي بضرورة التحرر من الفكر الديني الاسلامي ليواصل البحث العلمي طريقه للوصول إلى الحقيقة العلمية التي هي غاية العقل ومصلحة البشرية.

يبدأ الكاتب الجزائري كلامه ببيان معنى مصطلح "العلمنة" التي يتبناها كمذهب لحياته التعليمية، فيقول بأن العلمنة التي يفهمها تتمثل في كونها "نضالا من أجل امتلاك الحقيقة أو التوصل إليها"، ثم أن هذا التوصل والانطلاق في البحث قد تعوقه معوقات وتعترضه صعوبات تحول دون تمامه كما يبتغيه العقل والمنهج العلمي، وأولها الخصوصية الثقافية والتاريخية والدينية ثم يركز على هذه الأخيرة بأنها الخصوصية الدينية التي ولد فيها الباحث، ويدعو إلى تجاوز هاته الخصوصيات وعدم اعتبارها وإلا فإن هذا قصور في البحث ونقص في الدراسة ومساس بالمنهج العلمي في نظره، كما أنه في الفقرات الأولى يذكر مصطلح "الفكر الديني" كأنه يقصد جميع الأديان ويحرص على التعميم، ثم نجده يشير في ثنايا البسط والسرد بأن الفكر الإسلامي وثقافته هي أكثر ما ينطبق عليها قوله، باعتبار أن أهله أشد تعلقا وتمسكا بيقينياتهم الدوغمائية أكثر مما يجب، ثم يصل إلى ضرب المثال بالحالة الجزائرية ويسبط الشرح والقول مستندا على دراسةٍ حول الجزائر لكاتب أجنبي عن الجزائر وثقافتها وفكرها وتاريخها (أركون، 1996م، صفحة ص: 9 وما بعدها)، فيفهم من خلال هذا التدرج أنه يريد القول بضرورة اجتناب وتجاوز الفكر الاسلامي ومقتضيات الثقافة الاسلامية في الجزائر لتحقيق حسن البحث العلمي والدراسات الساعية للوصول إلى الحقائق.

هكذا يصور المغتربون فكريا حالة البحث العلمي والثقافة الدينية، بأنهما خطان متوازيان لا يجتمعان أو أنهما نقيضان لا يستقر أحدهما إلا بنفي الآخر، وأن على الباحث أن يسلك أحد الطريقين العقل والعلم أو أحكام الدين وسلطانه، ولا يخفى ما في هذا القول والتصوير من المغالطات العلمية والمنهجية والتاريخية إذا ما ناقشنا هذه القضية بموضوعية، فدعاة العلمنة يسعون لعزل الفكر الديني وثقافته عموما عن واقع الحياة، مهما كانت هذه الثقافة الدينية وقيمتها سماوية ربانية كانت أو وضعية بشرية، محرفة المبادئ والنصوص أم صحيحة ثابتة وفق منهج علمي متواتر عن الثقات، ومهما اعترفت الدراسات العلمية والاكتشافات المعاصرة بصحة أخبارها ونصوصها (حبنكة الميداني، غزو في الصميم دراسة واعية للغزو الفكري، 1982م، صفحة ص: 200)، أي أنه نفي تام وعزل مطلق دون النظر في حقيقة الفكر الديني ومبادئه والثقافة التي ينشرها بين أتباعه وأهله.

نعم الثقافة الدينية تختلف من دين لآخر كما تختلف فيها المعتقدات والأحكام، فالقرار الذي ينطبق على الدين المسيحي وثقافته لا يعني ضرورة انطباقه على الدين الاسلامي وفكره وثقافته ومنهجه، فلئن استقام تطبيق العلمنة مع الفكر المسيحي فهو لا ينطبق مع الفكر الاسلامي وثقافته التي يدعو أتباعَه إليها، "فالعلمنة وجدت سبيلا ومكانا في الأوساط الأوروبية المسيحية، نظرا لتسلط الكنيسة وتحالفها مع الظالمين على شعوب الغرب المختلفة، ووقوفها في وجه كل تفتح فكريٍّ أو كشف علميٍّ، وتجاوزها ذلك من الحجر على العقول إلى حجر أخطر على القلوب، حين فرضت صكوك الغفران وقرارات الحرمان من الجنة (طريد الكنيسة)، وراحت تتاجر بها وتتخذها وسيلةً للكسب الحرام استغلالا للوازع الديني عند النصارى، وغرقت أوروبا في دماء ضحايا الكنيسة، حيث سقط المئات بل الآلاف تحت مقاصل محاكم التفتيش ومشانقها غير من غيبوا في غياهب السجون قسرا" (رمضان البوطي، يغالطونك إذ يقولون، 2010م، صفحة ص: 35 وما بعدها) (القرضاوي، 1997م، صفحة ص: 47) (جريشة و الزيبق، 1979م، صفحة ص:60)، فمع هذا الحال في الواقع الأوروبي النصراني كان من الضروري والواجب المنطقي النداء بإزاحة كل ما يعترض طريق البحث العلمي والتقدم الحضاري، فالحكم الكهنوتي الديني كان ضد المصالح البشرية وخدمة الانسانية وإعمار الأرض.

أما في الواقع الإسلامي والمنطق الثقافي عند المسلمين فهو بخلاف ذلك تماما، حيث نادى الإسلام بالتعليم منذ فجر بزوغه وحرص على العلم والقراءة وتحرير العقل منذ كلمته الأولى بقوله تعالى: "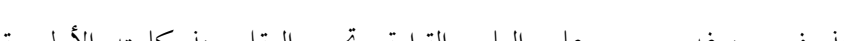" (سورة العلق: 01) ، ونادى في عدد كثير من آياته بضرورة التفكير وإعمال الفكر والعقل والنظر والتدبر في هذا الكون الفسيح، ورفع أهل العلم درجات وأناط بهم كثيرا من المهام تجاه مجتمعهم ووطنهم ودينهم خدمة للثقافة والمصلحة الانسانية، وجعل السعي في طلب العلم والاجتهاد في البحوث العلمية من القربات والطاعات التي يثاب عنها صاحبها، لهذا نجد جميع العلماء المسلمين في خاتمة كتبهم يدعون الله بقبول السعي في تأليف الكتاب وذاك الجهد العلمي، ونصوص الكتاب والسنة في هذا المجال لا تخفى على عاقل ودارس منصف فلا حاجة لذكرها وإطالة البحث بشرحها وتفسيرها.

إذاً إنه من المغالبة العقلية والعبث الفكري أن نساوي بين المنهجين والثقافتين، رغم تباين طبيعة وماهية المنهجين في المبادئ والأسس تجاه البحث والدراسات العلمية، فالباحث الأوروبي يتحتم عليه منطقيا أن يتحرر من قيد منهجه الذي يُقعده عن الانطلاق والسعي في النشاط العلمي، أما الباحث المسلم فهو مدعو للبحث والدراسة تحقيقا لمصالح الانسانية والبشرية بالعلم واستجابة لدينه وثقافته الاسلامية التي لا تقرّ الجمود الفكري ولا تعترف بالركود العقلي، وإنه لاعتداء صارخ للمنطق العلمي والمنهج الدراسي أن نجعل الثقافة الاسلامية مع ثقافة الجمود والقيود غير المبررة على صعيد واحد ونطرحهما معا دون النظر في طبيعة الثقافتين.

وأثر هذه التسوية بين الثقافتين ليس بالخفي على أولى النهى، حيث أن التسوية بينهما يفضي إلى الحكم على المنهج الاسلامي بنفس ما حُكم به على المنهج الديني الغربي، فيكون الإقصاء والإبعاد عن الواقع هو أول حكم يتبادر إلى ذهن المُغرر بهم، وأنه ليس بين التقدم ورغد الحياة سوى ذاك التنصل من الثقافة الاسلامية والتملص من منهجها، عندئذ تتقطع جذور التواصل بين الماضي والحاضر فيغيب على إثرها المستقبل، ويقع الشخص صريع أهواء غربية تسوقه صوب مصالحها وأغراضها العدوانية على حساب هويته، ومفرطا في كيانه الأصيل ووطنيته التي هو حقيق بها وهي أحق به، فتصرفات الإنسان وبرامج

المجتمعات هي نِـتاج القناعة الدينية والهوية الوطنية، فإذا لم يكن للإنسان مخطط للنهوض قائم وفق مبادئه وهويته، فحتما سيكون أيقونة ضمن برامج ومخططات الآخرين، بل قد يكون وسيلة لعدوه خادما لمآربهم ضد قومه وثقافته وأرضه، كيف لا والعدو هو أول المتربصين وأحرص الماكرين على استغلال الغافلين.

المطلب الثاني: الثقافة الاسلامية ظاهرة اجتماعية في المجتمع الجزائري

تتعدد ثقافات الشعوب والمجتمعات وتتنوع القناعات ويكون منها المقبول عقلا ومنطقا والمرفوض، والواجب على الشخص السوي فكرا تجاه أي ثقافة مهما كانت احترام أشخاصها ومتبعيها ومبادئها وقوانينها، وإذا اقتضى الأمر دراسة علمية لأي ثقافة منها فاللازم أن يتحلى الباحث بالموضوعية البحتة، بعيدا عن التهجم والمبادرة بالاعتراض دون بيان، وبعيدا عن التنكر للمناهج العلمية وتجاوزا لحدودها، وهذا ما نجده خلافه في التصريح بمثل هذه الدعوى وتطبيقها على المجتمع الجزائري.

يذكر الكاتب الجزائري الأصل أن المجتمع الجزائري قبل الاستقلال بقليل وبعده، ظهرت فيه عدة قوى إيديولوجية اجتماعية وتصارعت حول تحديد انتماء شخصية المجتمع الجزائري وهويته ثقافيا: أإسلامية هي أم جزائرية؟ وأنه ظهر فيها تيارات مختلفة تصارعت وتنازعت لفرض نفسها على الشعب الجزائري منها تيار العروبية وتيار الإسلاميين عن طريق رجال الدين وتيار الجزائريين، ثم يقول أن التيار الاسلامي وثقافته كانت تصل عبر علماء الدين، وأنهم كانوا يَـلْقون معارضة ومقاومة من الجزائريين أنفسهم، وكثيرا ما يصرح بمصطلح "الظاهرة الدينية في الجزائر" ويقصد بها الثقافة الاسلامية عند الجزائريين فسياق الكلام كله كان حولها، ثم يواصل الكلام إلى أن يصل لنتيجة بأن السلطة الجزائرية بعد الاستقلال وقبله بقليل تبـنَّـت فكرة الثقافة الاسلامية كردة فعل تجاه الحقبة الاستعمارية (أركون، 1996م، صفحة ص: 16 وما بعدها)، مما يوحي بأنه ليس حقيقة إيمانية ومعتقد نابع من قناعة الشعب الجزائري بهذا الدين.

والحق أقول إن الهوية الجزائرية والانتماء الثقافي قد حددهما الشعب الجزائري قبل الكاتب بقرون، فمنذ الفتح الاسلامي إلى اليوم كان للشعب الجزائري يد طولى وإسهامات علمية جليلة في المجال الثقافي الاسلامي، حيث برز ونبغ جمع غفير من أبناء الجزائر كعلماء مسلمين قدموا للإسلام وأمته إنجازات

معتبرة، ومجرد إطلالة ولو خفيفة على تاريخ الجزائر قبل الاستعمار الفرنسي وأثناءه، يعطي صورة واضحة لا مرية فيها عن انتماء الشعب الجزائري ثقافيا وفكريا، وقد جمع الدكتور أبو القاسم سعد الله جهود الجزائريين في المجال العلمي والعطاء الثقافي الشيء الباهر، حيث يأخذك العجب ويستبد بك الطرب بإنجازات الجزائريين وشخصياتهم العلمية (سعد الله، 1998م، صفحة ج:2، ص: 171)، وهذا الانجاز كله كان بعد الفتح الاسلامي وتحت راية حكمه وانتشاره في ربوعها، مما يدل على أن الانطلاق العلمي للجزائريين كان من ثمرات الفتح الاسلامي، هذا قبل الاحتلال الفرنسي بقرون، أما أثناء الاحتلال فنذكر الخبر الذي صار من المسلمات التاريخية في الجزائر، وهو هجوم الفرنسيين وأعمالهم الهمجية على دور الثقافة والتعليم الديني الاسلامي والمساجد لإيقاف نشاطها، حيث كانت تنتشر هذه المؤسسات التعليمية الدينية في كامل التراب الوطني، وتحت رعاية الشعب الجزائري نفسه ودعمه لها ماديا ومعنويا.

وليس هذا فحسب؛ بل إن نهاية الاحتلال الفرنسي واندلاع الثورة التحريرية في وجهه كانت وفق مبادئ إسلامية، وكان الهدف والغاية من الجهاد ضد الاحتلال هو إقامة دولة جزائرية وفق المبادئ الإسلامية كما بينه بيان أول نوفمبر 1954م، مع ضرورة احترام الحريات السياسية وتوجهات الفئات الأخرى من المجتمع الجزائري[3]، مما يدل على تبنِّي الشعب الجزائري للثقافة الاسلامية حتى غدت جانبا أصيلا من ثقافته وتاريخه وشخصيته، والتصريح بغير هذا المعنى يعتبر طعنا في مسلمات تاريخية ومكابرة واضحة.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن القول بكون الثقافة الاسلامية ظاهرة دينية في المجتمع الجزائري، فيه تأثر بثقافة الغرب الأوروبي واعتقاد لمذهبه القائل بأن الفكر الديني كله ما هو إلا مظاهر اجتماعية، فيصح تجاوزها لتحقيق المصالح الشخصية، وأن دور الدين يقتصر على عبادات روحية تقام في

[3] بيان أول نوفمبر 1954م لا غبار عليه ومعانيه واضحة جلية للعيان، إلا أن هناك من يحاول القول بأن المبادئ الاسلامية نُصَّ عليها في البيان لتحترم فقط وليست تعبر عن عقيدة الشعب الجزائري ومذهبه، ولا يخفى ما في هذا القول من المغالبة التاريخية والمنطقية والتجاوز لحدود الفهم والجناية على مبادئ الشعوب. (ينظر: بيان أول نوفمبر وأسس الدولة الوطنية، رابح لونيس، مجلة المصادر، ع:7، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، الجزائر: 2002م، ص:33)

دور العبادة فقط، ولئن صلح هذا القول في الفكر الديني الذي كان منتشرا في أوروبا فهو لا يصح مع الفكر الديني الإسلامي وثقافته.

حيث أن حقيقة الثقافة الاسلامية ومصادرها تختلف جذريا عن حقيقة الثقافة الدينية في أوروبا، ونظرة العلماء الأوروبيين لدينهم ليست كنظرة العلماء المسلمين لثقافتهم الإسلامية، فالذي تُكِنُّه ضمائر المفكرين والمثقفين الغربيين الأوروبيين وتعتقده قلوبهم حول الثقافة الدينية (المسيحية) عندهم، أنها آداب كهنوتية وضعتها الكنيسة على سبيل التدريج أثناء القرون الخمسة الأولى وليست مما أُخِذ عن السيد المسيح عليه السلام ولا مما نقل عن الحواريين (رمضان البوطي، الظلاميون والنورانيون، 2016م، الصفحات ص:51-52)، فتعاليم الفكر الديني عند الغرب عبارة عن كلام مجموعة من رجال الدين واجتهاداتهم أصولا وفروعا، وليست تعاليم منقولة بالأسانيد الصحيحة عن السيد المسيح عليه السلام، فلا غرابة أن يتعامل المفكرون الغربيون مع ثقافتهم الدينية بشيء من النقد المطلق، ولا سوءة إذا ما غيروه وفق مصالحهم وأغراضهم، ولا عجب أن يسموه بالظاهرة الاجتماعية لأنه مجرد صياغات ونصوص بشرية، وليست هكذا الثقافة الاسلامية.

فالثقافة الاسلامية بمصادرها الأصلية وأصولها الاعتقادية وبنيانها التشريعي، هي واقع ذاتي ذو وجود موضوعي مستقل عن ذهن الإنسان وفكره (رمضان البوطي، 2016م، صفحة ص: 58 وما بعدها)، وهذه الوصف الثابت لمصادر الثقافة الاسلامية هو ما خلصت إليه دراسات المنصفين والباحثين من جميع التوجهات، كحال الفيلسوف الشهير فولتير الذي اتخذه الإمام محمد الغزالي شاهدا على صحة وصف الاسلام وثقافته بأنه "دين المفكرين" ونقل عن كتبه أقوالا واعترافات تفيد بصحة أسانيد الإسلام ويقينها (الغزالي، دون سنة النشر، صفحة ص: 13 وما بعدها)، وحتى الجانب الاجتهادي في أحكام الشريعة فهو مرتبط بمسائل الفروع وحتمية الاجتهاد وفق معاني ومدلولات تلك الأصول اليقينية والصحيحة، وليست من بنيان الابتكار العقلي البحت أصولا وفروعا وفقها واعتقادا، ودور الآليات العقلية فيها يقتصر على فهم نصوصها والتماشي مع أصولها والسعي لتطبيق مقاصدها وغاياتها، فالشريعة في الثقافة الاسلامية هي البيان للمصالح ومنها تستقى المنافع، ولا يمكن أن تتخذ المصلحة الدنيوية المطلقة سبيلا لهدم قواعد الشرع الثابتة، قال الإمام الشاطبي وهو أحد منظري أصول التشريع الإسلامي، قال: "الأدلة العقلية إذا استعملت

في هذا العلم، فإنما تستعمل مركبة على الأدلة السمعية مُعِينَة في طريقها أو محققة لمناطها أو ما أشبه ذلك، لا مستقلة بالدلالة، لأن النظر فيها –أي نصوص الكتاب والسنة– نظر في أمر شرعي والعقل ليس بشارع" (الشاطبي، 2003م، صفحة ج: 1، ص:35)، فالعقل بآلياته هو وسيلة لإدراك الصواب واستنباط الحكام الشرعية من مدلولات النصوص الشرعية، وليس هذا حجرا على العقل بل هو تنظيم لعمله وضبط له لكي ينأى عن مظان العبث الشهوي واتباع الأهواء العشوائية.

وعلى كلٍ فالبون والفرق شاسع بين مصادر الثقافتين وتأصيلهما العلمي، ولا يمكن أن نتعامل معهما بنفس المنطق ولا أن نحكم عليهما نفس الحكم، فلكل ثقافة خصائصها ومميزاتها التي تدل عليها وتحاكم لها، فمجرد اشتراكهما في مصطلح الدين أو مصطلح الثقافة الدينية لا يعني تساويهما في كل الخصائص واشتراكهما في كل الأحكام.

كما أن كلام الكاتب وقوله بوجود تيارات متنازعة حول الهوية الثقافية للجزائر، وتحديدها بتيار العروبية وتيار الإسلاميين وتيار الجزائريين وتنافسها فيما بينها، يفهم منه الصراع الطائفي والتمييز العنصري والقومي والسعي لبث هذه النعرات بين أبناء الشعب الواحد، فالشعب الجزائري حاله كحال أي مجتمع وأي دولة في الدنيا، فيها اختلاف الأعراق و القبائل المتعددة، ولكنها متماسكة فيما بينها وصنعت التاريخ الناصع في الدفاع عن نفسها ومبادئها، ولم يحدثنا التاريخ يوما عن صراعات ونزاعات جرت بين جزائريين وإسلاميين بل لا تكاد تذكر هذه التقسيمات في التاريخ الثقافي الجزائري مطلقا، وإنما يسعى السعاة للوقيعة والتشتيت بين أبناء الوطن الواحد والثقافة الدينية الواحدة، فيسهل عليهم اقتناص تلك الثقافة والاطاحة بها بتمزيق وحدة أتباعها وناصريها.

خـاتـمـة:

تعتبر الثقافة الاسلامية أهم دعامة في الشخصية والهوية للشعب الجزائري، فلا غرابة أن يتخذ أعداء الجزائر كل أساليب الغزو في سبيل الإطاحة بها وبشعبها، وقد عمدوا في العقود الأخيرة إلى التأثير على صفوة المجتمع الجزائري وهم الطبقة المثقفة من الشعب، عن طريق تجنيد بعض الكتّاب والمؤلفين الجزائريين الذين يتظاهرون بصفة المفكرين والأدباء والباحثين العلميين، فيكتبون ساعين لطمس الهوية الجزائرية بضرب تلك الثقافة التي ظلت تُلْهِم الجزائريين بصناعة ذواتهم والاستقلال بشخصيتهم، وتحملهم على تنمية واقعهم وتقرير مصيرهم وفق المبادئ الاسلامية، ويحاولون إبعاد الثقافة الاسلامية واستيراد ثقافة أخرى غربـية غريـبة عن الماهية والهوية الجزائرية التي وثّقها بيان أول نوفمبر.

فيصير المجتمع الجزائري غريـبا عن هويته وذاته غربـيا في ميولاته وانتماءاته كليا، أو يتشتت المثقفون فيه فكريا وثقافيا بين الولاء للهوية الأصلية والولاء للهوية الغربية الدخيلة على المجتمع الجزائري، فيبقى في حلقة مفرغة فلا هو يعرف ثقافته ولا هو يصنع حاضره ولا هو يتهيأ لمستقبله، وهذا الصراع الفكري والثقافي هو أخطر تحديات المجتمع الجزائري والتنمية المستدامة في الجزائر.

توصيات: انقدحت في الذهن بعض التوصيات التي يمكن أن تزيد من حماية الهوية أصوغها كما يلي:

- ضرورة إقامة ملتقيات فكرية علمية في كل الجامعات، توضح معالم الهوية الوطنية، وتجلي خطورة التحديات التي تواجهها، وخاصة التحديات الفكرية العلمية.
- إدراج مقياس باسم "الثقافة العامة أو الثقافة الاسلامية" في الوحدة الاستكشافية أو الثقافية، لجميع التخصصات العلمية في الجامعات الجزائرية، حتى يتبصر الطلبة بحقيقة هويتهم وثقافتهم الاسلامية، وكيلا يكونوا ضحية لتيارات غربية غريبة عن الذات الجزائرية.

قائمة المراجع:

- إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، اعتنى به الشيخ عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، سنة: 2003م، بيروت-لبنان
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، سنة: 1998م، بيروت-لبنان
- أنور الجندي، الإسلام في غزوة جديدة للفكر الإنساني، دار التحرير للطبع والنشر، الطبعة الأولى، سنة: 1964م، مصر
- أنور الجندي، شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، إصدارات المكتب الإسلامي، دون رقم الطبعة، سنة: 1978م، دمشق-سوريا
- رابح لونيس، بيان أول نوفمبر وأسس الدولة الوطنية، مجلة المصادر، العدد السابع، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، الجزائر: 2002م.
- عبد الرحمن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، دار القلم، الطبعة الثامنة، سنة: 2000م، دمشق-سوريا
- عبد الرحمن حبنكة الميداني، غزو في الصميم: دراسة واعية للغزو الفكري، دار القلم، الطبعة الأولى، سنة: 1982م، دمشق-سوريا
- علي جريشة ومحمد الزيبق، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، سنة: 1979م، مصر
- محمد جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، الطبعة الثالثة، سنة: 1414هـ، بيروت-لبنان
- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين وعمر مسقاوي، دار الفكر، دون رقم الطبعة، سنة: 1986م، دمشق-سوريا

- محمد أركون، العلمنة والدين: الإسلام المسيحية الغرب، دار الساقي، الطبعة الثالثة، سنة: 1996م، بيروت–لبنان
- محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، دار الشروق، دون رقم الطبعة، دون سنة النشر، القاهرة–مصر
- محمد سعيد رمضان البوطي، الظلاميون والنورانيون، دار الفكر، الطبعة الثالثة، سنة: 2016م، دمشق–سوريا.
- محمد سعيد رمضان البوطي، يغالطونك إذ يقولون، دار الصديق للعلوم، دون رقم الطبعة، سنة: 2010م، دمشق–سوريا
- مصطفى مسلم وفتحي الزغبي، الثقافة الإسلامية: تعريفها مصادرها مجالاتها تحدياتها، دار إثراء، الطبعة الأولى، سنة 2007م، عمان–الأردن.
- يوسف القرضاوي، الاسلام والعلمانية وجها لوجه، الناشر مكتبة وهبة، الطبعة السابعة، سنة: 1997م، القاهرة–مصر